خطة الحركة الوطنية في مواجهة الحرب الأهلية اللبنانية

الحلقة السادسة

المقدمات الموضوعية والذاتية للحرب الأهلية اللبنانية

ووجهة النظر الجماهيرية الشعبية وموقفها من سياسة أهل النظام الرجعية

بقلم: أبو عدنان

اطلعنا من خلال ما سبق من البحث على درجة الاحتدام والتفاقم الذي بلغته التناقضات الثانوية بين اهل النظام اللبناني انفسهم ، واشرنا الى الطابع الخاص للرأسمالية اللبنانية ، ودوره في الازمة العامة للنظام الرأسمالي اللبناني ، وفيما يلي من البحث سنقوم بجولة يمكننا ان نسميها « جولة ميدانية » نسجل خلالها ظواهر تذمر الجماهير الكادحة وشكواها من تردي اوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ، تسجيلا غرضه تحرير مذكرة يومية تحكي للقراء عما كان يعانيه الطرف التقدمي الوطني من التناقض الرئيسي الذي يعيشه المجتمع اللبناني ، وتذكرهم بمختلف اساليب النضال السلمية التي كانت الجماهير الكادحة تتشبث بها على امل التخفيف من ضغط تفاقم ازمة النظام العامة عليها ، دون جدوى ، وتكشف لهم الهوة التي كانت تتسع يوما بعد يوم وساعه اثر اخرى ، بين الكادحين والمترفين ، بين المستغلين والمستغلين ، بين الجائعين والمتخمين ، بين القلة القليلة والجموع الكثيرة ، بين العمال والفلاحين والطلاب وسائر الكادحين من جهة وبين الكومبرادوريين والملاك العقاريين من جهة اخرى ، لكي نتبين بوضوح ان المقدمات الموضوعية للحرب الاهلية اللبنانية كانت تنضج باستمرار ويزداد نضجها بازدياد اهمال الحاكمين وانشغالهم بشؤونهم الخاصة وانصرافهم لتكديس الثروات واعداد الميليشيات ومختلف وسائل وادوات واجهزة القمع التي دفعت الوضع للانفجار ، دفعا جعل الحرب الاهلية حلا وحيدا امام جميع الاطراف المتصارعة على تراب الوطن اللبناني .

« الهدف »

ان ازدياد تردي الاوضاع الطبقية والوطنية العامة لم يكن يوازيه سوى تمادي الاحتكاريين في الاستغلال الجشع ، واصرارهم على ان يكونوا احرص من الامبرياليين والصهاينة في تنفيذ ما يطلب منهم !

ان بحثنا عن مقدمات الحرب الاهلية وعوامل تفجرها ، يتطلب منا العودة الى الوقت الذي بدأت معه مقاومة الشعب الفلسطيني بالظهور على مسرح الواقع اللبناني ، اي الى وقت هزيمة عام ١٩٦٧ ، لكي نتابع عملية التفاعل بين مشاعر الجماهير اللبنانية التي تعكس تردي اوضاعها الحياتية ، وبين مشاعر الجماهير الفلسطينية المتأججة ضد اعدائها القوميين والطبقيين ، اي ضد الصهاينة والرجعيين

لا ريب في ان صفحات « الهدف » لا تستوعب ما ارغب في تسجيله من وقائع واحداث تلك الفترة الطويلة ، الامر الذي اضطررت معه لان اترك تفاصيل هذه المراجعة الى صفحات كتابي « خطتا الحركة الوطنية في مواجهة الحرب الاهلية اللبنانية » ، على امل ان نتلافى هذا النقص في الدراسة .

وقد تصورت انه بوسعي تسجيل وقائع العام الذي سبق اشتعال فتيل الحرب الاهلية في السادس والعشرين من شباط ١٩٧٥ ، وكنت حريصا على ان ابدأ بتسجيل هذه اليوميات من صباح السادس والعشرين من شباط ١٩٧٤ ، لكي انتهي بمجزرة صيادي صيدا واستشهاد المناضل الوطني معروف سعد ، ولكنني جوبهت بعقبات يصعب تذليلها ، اولها عدم توفر المصادر المطلوبة ، اذ راجعت سائر الصحف الوطنية التي قدرت انها تهتم بمتابعة نضال الجماهير وعكس معاناتها اليومية ، لكي ابتاع منها مجلدات تلك الفترة فلم اقلع ، وكدت اقتصر البحث على معلوماتي الشخصية وبعض المجلات الاسبوعية ، لولا ان انقذني الرفيق ياسر نعمة مدير ادارة جريدة السفير الغراء ، اذ وفر لي مجلدات « السفير » لعام ١٩٧٤ . وبما ان السفير بدأت الصدور صباح ٢٦ /اذار/١٩٧٤ ، فقد بدأت من صباح اليوم الذي سبقه ، متجاوزا شهرا كاملا من التاريخ الذي حددته ، ومع ذلك وجدت نفسي امام عقبة جديدة تجسدت في عدد الصفحات الضخم الذي تكدس امامي قبل ان ابلغ نهاية نيسان ١٩٧٤ ، اي بعد ان سجلت اهم احداث ووقائع اثنين وثلاثين يوما من عام ١٩٧٤ ، مما اضطرني للتوقف عند هذا الحد ، لاعتبارات عديدة اهمها ان اليوميات المدونة تعطي صورة واضحة ، عن وجهة نظر الجماهير الشعبية وموقفها من سياسة اهل النظام الرجعية . ذلك ان هذه الفترة على قصرها ، كانت كافية لان تتيح للغالبية الساحقة من ابناء الطبقات الكادحة الذين يشكلون ٨٢ بالمئة من ابناء الشعب اللبناني ، فرصة الادلاء بآرائهم والتعبير عن وجهات نظرهم !

ومثلما استدعينا اهل النظام لان يدلوا بشهاداتهم بخصوص طابع الحرب الطبقي ومقدمات نشوبها ، فاننا سنقضي فترة الـ ٣٢ يوما في استفتاء ابناء الشعب ودعوتهم للادلاء بشهاداتهم ووجهات نظرهم في الحكومة والدولة والنظام ، لكي نستكمل سجل استنطاق الوقائع التي هي اشياء عنيدة كعادتنا سنترك ذوي العلاقة يتحدثون ويعبرون عما يريدون الحديث عنه ويرغبون في التعبير عما يشاؤون ، بحرية مطلقة . فبماذا سيحدثنا العمال والفلاحون والطلاب والمعلمون وسائر ابناء طبقات وفئات الشعب اللبناني الكادحة ، عن معاناتهم المريرة في مجالات حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ؟

■■ الاثنين ٢٥ اذار ١٩٧٤

سنبدأ بتسجيل يوميات الاحداث التي سبقت الحرب ومهدت لانفجارها ، بوقائع الخامس والعشرين من اذار ١٩٧٤ ، كما سبق وبينا .

■■ الطوارىء وشعبنا في الجنوب

● الطوارىء اجراء تتخذه الحكومة ، اي حكومة تشعر بحاجتها لتشديد وتيرة القمع والاضطهاد ، لذلك فان لجوء الحكومات الى اعلان حالة الطوارىء ، يعطي دليلا على شعورها بالحاجة الى نمط من القمع والارهاب الطبقي اعنف من النمط الذي توفره اساليب القمع والاضطهاد التقليدية . وكانت هذه هي حالة الحكومة اللبنانية حين اعلنت الطوارىء في محافظة الجنوب ، وهي المنطقة التي تضم اكثر جماهير الشعب اللبناني حرمانا وبؤسا . وكان من نتيجة اعلان حالة الطوارىء ان بدأت جماهير الجنوب تعاني من سيف الكبت والاضطهاد المسلط على رأسها ، وقد اشار كمال جنبلاط الى هذه الحالة بقوله : « ... طالما ان قانون الطوارىء يحكم الجنوب ، فالجنوبيون لا يمارسون حقوقهم العامة » . (٨٦) .

● مسيرة طالبية وتظاهرات « طيارة » ، تعم عددا من المدن اللبنانية ، وهي تهتف « يا حرية ... يا حرية » وقد طارد رجال الامن المتظاهرين بالمصفحات والافراد .

● عاصمة الجنوب شهدت اليوم اعنف مطاردة بوليسية قام بها رجال اسطفة في صيدا ضد الطلاب المتظاهرين . واستمرت المطاردة اكثر من خمس ساعات نجم عنها اعتقال اكثر من ثلاثين طالبا واصابة ملازم اول بجروح طفيفة .

وساد مدينة صيدا ظهر اليوم جو من التوتر بعد ان انتشر رجال الدرك في الساحات العامة وعلى سطوح الابنيه واخذوا يطلقون النيران على الطلاب المتظاهرين في حين اخذت مصفحات الدرك تجوب شوارع المدينة وتطلق القنابل المسيلة للدموع بينما سيرت دوريات مماثلة كبيرة اعتمرت الخوذ الفولاذية في احياء المدينة وبدأت تنهال ضربا باعقاب البنادق على الطلاب والاهالي بلا تمييز .

واثر ذلك أقفلت جميع المحلات والمقاهي ودور السينما في المدينة وسارع المارة في ساحتي النجمة ورياض الصلح الى الهرب خوفا من الحجارة الكبيرة والقراوات التي كان يستعملها رجال الدرك . وقطعت كافة الطرقات باطارات الكاوتشوك والحجارة وشلت حركة السير طيلة فترة التظاهرة التي انطلقت من ساحة ضهر المير في صيدا القديمة . وجاب خلالها المتظاهرون شوارع المدينة وهم ينددون بسياسة الدولة التربوية .

وعندما وصل المتظاهرون الى مبنى القصر البلدي تصدى لهم احد رجال الدرك وانهال عليهم ضربا بعقب مسدسه . ورد عليه الطلاب . في حين سارعت مصفحات الدرك باتجاههم تطاردهم من شارع الى شارع بالقنابل المسيلة للدموع والهراوات . وجرت بين الفريقين معركه استمرت اكثر من خمس ساعات اسفرت عن اصابه واعتقال العديد من الطلاب كما اصيب دركيان بجروح . وملازم في رأسه نقلوا الى المستشفى العسكري في بيروت . وشملت المطاردة شوارع المطران وانشاكرية والاوقاف وعمد خلالها الطلاب الى اقفال الطرقات بالحجارة للحيلولة دون تقدم رجال الدرك ولوحظ بوضوح ان رجال التحري تغلغلوا بين الطلاب وبدأوا باعتقالهم ، مما حدا بالطلاب لضرب اكثرهم .

● وتجدر الاشارة الى ان تظاهرة مماثلة انطلقت صباح اليوم في بلدة صور عمد خلالها المتظاهرون الى قطع بعض الطرقات الا ان وجود مصفحات ورجال الدرك حال دون نجاح خطتهم وانطلقت التظاهرة من ثانوية صور الجعفرية وطاف خلالها الطلبة انحاء البلدة .

● اهتمت الصحافة اليوم بموضوع الاضراب العام ، وتحدثت باسهاب عن يوم الثاني من نيسان القادم حيث من المقرر تنفيذ الاضراب العمالي القادم ، اذ انذر ٤٠٠ الف عامل بالتوقف عن العمل . وقد طفحت الصحافة الوطنية بالحديث عن الطبقة العاملة وعن دورها والاضرابات التي قامت بها منذ عام ١٩٤٨ حتى تاريخه .

● كما اهتمت الصحافة الصادرة اليوم باللجنة التي تشكلت لدراسة كلفة الرغيف وايجاد حل لمشكلة الخبز . وقد علقت « السفير » على ازمة سعر الخبز بقولها :

« القصر يلهي السياسيين بحديث حل المجلس
والمواطنون يصرخون : بدنا ناكل جوعانين » .

خلال « اسبوع الاكل » في السان جورج وقبله بأيام وبعده باسبوع ، سجل المراقبون مظاهرات ومفارقات لن لم تكن باعثة على الاسى في تقدير المسؤولين ، فهي ، في جميع الاحوال ، مثيرة للسخرية التي ما بعدها سخرية . ففي الوقت الذي كانت فيه تظاهرات الطلاب تعم شوارع العاصمة ، والمناطق ، من اجل مطالب مزمنة محددة معروفة ، وفي الوقت الذي كان فيه المواطنون يتراحمون على ابواب الافران كانت احاديث النواب ، بكل ما فيها من سحر ، و « تريقة » وخلافات وخناقات تدور حول تجارة السلاح ، وصفقات الاراضي ، والمغانم المرتقبة من ابواب الموازنة ، وسائر ما يحمل النواب انفسهم على المجيء من اجله الى ردهات البرلمان . واكثر من ذلك ، كانت احاديث المآدب ، ومباراة الكر والفر بين الحكومة وانصارها من جهة ، والمعارضة وانصارها من جهة اخرى ، تستهدف فقط لا غير ، العثور على الطرق والوسائل التي تضمن بقاء الحكومة ورضى المعارضين ، ان كان عن طريق اغداق الوعود المتصلة بالتشكيلات والصفقات ، ام عن طريق تنفيذ بعض الصفقات بالفعل بانتظار البقية .

ما من نائب واحد ، ما من مسؤول واحد ، حاول ان يدعو الى مأدبة ، او ان يقيم مأدبة من اجل مناقشة الشعارات التي رفعتها التظاهرات الطلابية ومنها مثلا : كلية للطب . كلية للهندسة . كلية للزراعة . بناء جامعي موحد . تعاونية استهلاكية . تطبيق فعلي للضمان الصحي . اعادة فتح المركز التربوي الفني . توحيد الكتاب المدرسي الى اخر هذه السلسلة التي تشكل كل حلقة من حلقاتها قضية مصير تفرض ذاتها على اهتمامات الدولة ـ اي دولة تحترم نفسها .

وبانتظار الوقت الذي يستطيع فيه الطلاب ان يفرضوا قضاياهم التي هي في الواقع قضايا الوطن المصيرية ، على الدولة ، وكذلك بانتظار الوقت الذي يستطيع فيه المواطنون ، حمل الدولة على التحسس بالبلاء ، وبسائر ما يمكن ان تضيفه في